تعريف علم البلاغة:

تعددت تعاريف البلاغة، واختلفت من عصر لآخر، ومن باحث لآخر، ومن بين هذه التعاريف:

أولاً: عرَّف الرماني البلاغة بأنها: ((إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ)).

ثانياً: عرَّفها القزويني بأنها: ((مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته)).

ثالثاً: عرَّفها السكاكي بأنها: ((بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حداً له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها)).

رابعاً: عرَّف أمين الخولي (وهو من المعاصرين) علم البلاغة بأنه: ((البحث عن فَـنِّـية القول)) وذكر أن الفن هو التعبير عن الإحساس بالجمال، والأدب هو القول المعبر عن الإحساس بالجمال، فالبلاغة هي البحث عن كيفية تعبير القول عن هذا الإحساس.

خامساً: عرَّف أحد الباحثين المعاصرين علم البلاغة بأنه: ((العلم أو الفنُّ الذي يعلمنا كيف ننشئ الكلام الجميل المؤثر في النفوس، أو يعلمنا كيف ننشئ القول الأجمل)) وبين أن البلاغة تتكفل بتقديم القوانين العامة التي تسيطر على الاتصال اللغوي، وهي التي توضح الطرق والأساليب التي يستطيع بها الأديب أن ينقل عن طريق الكلمات والجمل أفكاره وآراءه إلى القارئ على أحسن وجه ممكن، والبلاغة هي التي تقدم لنا جملة من القواعد التي ينبغي أن تراعى في نظم الكلام الذي يأخذ بالنفوس وتسهل عملية الاتصال اللغوي في صور من التعبير الفصيح.

أقسام علم البلاغة:

علم البلاغة ينقسم على ثلاثة أفرع، هي: علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع. ولكل من هذه الفروع أو الأقسام فروع متعددة. وفيما يأتي بيان مختصر لأقسام البلاغة الثلاثة:

أولاً: علم المعاني: هو علم يبحث في كيفية مطابقة الكلام لمقتضى الحال. ويبحث في هذا القسم الإنشاء والخبر، والإسناد، والإيجاز والإطناب والمساواة، والفصل والوصل، والتقديم والتأخير، والتوكيد وتركه... وغير ذلك من المباحث.

ثانياً: علم البيان: هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان. ويبحث في هذا العلم التشبيه، والحقيقة والمجاز، والاستعارة، والكناية.

ثالثاً: علم البديع: هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية مطابقته لمقتضى الحال ووضوح دلالته. ويبحث في هذا القسم المحسنات اللفظية والمحسنات المعنوية، كالسجع والطباق والجناس وغيرها.

تاريخ علم البلاغة:

عرف العربُ في الجاهليةِ البلاغةَ، وكانوا يتذوقون أساليب الكلام بسليقتهم وفطرتهم بعيدة عن التقعيد والتعقيد، فكانوا يميزون بين جيد الكلام ورديئه، ويدركون تفاوت الكلام في الحسن. وقد كان الكلام صناعتهم، وفصاحة شعرائهم محط فخرهم.

وكان النابغة الذبيان تضرب له قبة في سوق عكاظ في العصر الجاهلي ليجلس تحتها ويأتي إليه الشعراء يعرض كل منهم شعره عليه لينقده ويبين حسنه ورديئه.

من هنا كانت المعجزة التي آتاها الله تعالى لخاتم رسله محمد صلى الله عليه وسلم معجزة لغوية تتمثل بالقرآن الكريم؛ مشياً على سنة الله في أنبيائه أن يؤتيهم معجزات دالة على صدق رسالتهم، هذه المعجزات تكون من جنس ما برع به أقوامهم.

وقد اعتنى المسلمون بلغة القرآن، وكان من مظاهر هذه العناية أن ظهرت علوم متنوعة تتعلق بهذه اللغة، ومن هذه العلوم علم البلاغة، ويذكر الباحثون أن أول من تناول علوم البلاغة بالبحث الجاحظ (توفي ٢٢٥هـ) في كتابه ((البيان والتبيين))، لكن تناوله له لم يكن مُقَعَّداً، كما إنه لم يتناول جميع مسائل هذا العلم.

ثم جاء بعد الجاحظ: عبدالله بن المعتز (توفي ٢٩٦هـ) وألف كتابه (البديع)، وجعل للبديع خمسة أنواع، هي: الاستعارة، والتجنيس، والمطابقة، ورد الأعجاز على ما تقدمها، والمذهب الكلامي. وبين محاسن الكلام وأنواعها.

ثم تتابع العلماء بعد ذلك في التأليف في هذا العلم، وظهرت كتب إعجاز القرآن التي تناول فيها مؤلفوها بعض مباحث علم البلاغة، منهم الرُّمَّاني (توفي ٣٨٦هـ) الذي ألف كتاب ((النكت في إعجاز القرآن)، وتكلم في هذا الكتاب على كثير من المباحث البلاغية. ومن هؤلاء أبو بكر الباقلاني (توفي ٤٠٣هـ) الذي ألف (إعجاز القرآن)، تحدث في عن البديع لبحث إمكانية تعليل إعجاز القرآن وبيان وجهه، وتكلم على كثير من المباحث البلاغية، وقارن بين أساليب القرآن وأساليب بلغاء العرب وبين وجه تميز أسلوب القرآن عليها.

ثم كثرت مؤلفات علماء اللغة والأدب في التأليف في هذا الموضوع، ومن أبرزهم ابن سنان الخفاجي (توفي ٤٦٦هـ) الذي ألف كتاب (سر الفصاحة)، وقد فصل فيه الحديث عن الفصاحة، وبين الفرق بينها وبين البلاغة، وذكر أوصاف الفصاحة والبلاغة.

ثم جاء عبدالقاهر الجرجاني (توفي ٤٧١هـ) الذي انتقل بعلم البلاغة نقلة كبيرة، ووضع نظريتي علم المعاني وعلم البيان بشكل منظم ووافٍ، ولم يطرح هذان العِلْمان على شكل نظرية محددة الجوانب إلا

على يديه، وقد عرض علم المعاني في كتابه (دلائل الإعجاز) وعلم البيان في كتابه (أسرار البلاغة)، وبين في كتابيه أن وجه إعجاز القرآن الكريم هو نظمه، فخرج بنظرية عُرفت فيما بعد بنظرية النظم. وخلاصة هذه النظرية أن إعجاز القرآن يكمن في لغته، وإعجاز لغته يكمن في نَظْمه، ومعنى النظم طريقة ترتيب الكلمات في الجمل والربط بينها، فمثلاً في قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام: ﴿واشتعلَ الرأسُ شيباً﴾ [سورة مريم: ٤] فيه استعارة وهي أنه شُبِّهَ الشيب بالوقود ثم حذف المشبه به (وهو الوقود)، وأُقيم المشبه (وهو الرأس) مقامه، لكن جمال هذه الجملة لا يكمن في هذه الاستعارة، وإنما يكمن في ترتيب الكلمات في هذه الجملة، فكان يمكن أن يقال: ((واشتعل شيبُ الرأس))، لكن النظم القرآني أسند الاشتعال إلى الرأس، وجعل الشيب تمييزاً. هذا النظم جعل هذه الجملة تؤدي معنى لا يؤديه التركيب الآخر (واشتعل شيب الرأس)، فقوله تعالى ﴿واشتعلَ الرأسُ شيباً﴾ دل على انتشار الشيب في جميع الرأس زيادة على سرعة هذا الانتشار الذي دل عليه الفعل (اشتعل). وقد عدَّ كثير العلماء الشيخ عبدالقاهر الجرجاني أول من صاغ مباحث البلاغة بحيث جعلها فناً له قواعده ومبادئه.

ثم جاء الزمخشري وطبق نظرية النظم في تفسيره ((الكشاف)) وفـرَّق بين علمي البيان والمعاني، ويعد هو أول بلاغي فرق بين هذه العلمين.

ثم جاء السكاكي (توفي ٦٢٦هـ) الذي ألف كتاب (مفتاح العلوم)، ورتب مباحث علم البلاغة وبوبها حتى عده بعض الباحث مؤسس علم البلاغة، وهذا غير صحيح كما يظهر مما تقدم بيانه. بعد ذلك كثر المؤلفون في علم البلاغة، وهكذا ظهر علم البلاغة وتميزت مباحثه وظهرت شخصيته علماً متكاملاً له موضوع ومباحث تميزه عن غيره من العلوم على الشكل الذي نراه اليوم.

أهداف علم البلاغة:

تناول العرب البلاغة بالبحث والدراسة لسببين:

السبب الأول: سبب فنِّي: إذ وُضعت علم البلاغة لتمييز جيد الكلام من رديئه، وإظهار مواطن الجمال في الأدب، ففي بادئ الأمر كانت البلاغة لإرشاد وتعليم الذين يريدون الإصابة في القول، ولوضع منهج للخطباء ورجال الفرق المذهبية ودعاة المذاهب السياسية وغيرهم من الذين يتصدرون للكلام أما عامة الناس.

السبب الثاني: سبب ديني: فبعد نزول القرآن الكريم ببلاغته التي بهرت العقول بدأ العرب بدراسة هذه البلاغة ليبرهنوا على إعجاز القرآن الكريم وليستوضحوا أحكامه ويتفهموا معانيه.